الترجمة إلى العربية في زمن الرواد المعاصرين

د. عبد العزيز المقالح
اليمـــن

مقدمـــة

يحاول هذا البحث الموجز أن يلفت انتباه المهتمين بالترجمة إلى اللغة العربية بالدور الجليل، الذي قام به الرواد في النصف الأول من القرن العشرين. وكيف توخّت ترجماتهم، العلمية والإبداعية، اختيار ما كانوا يرونه مفيداً ونافعاً للثقافة العربية، ومعيناً لها على الانعتاق من أسر التقليد والمحاكاة، سواء في أسلوب التناول التعبيري للقضايا المعاصرة، أو في طرح الأفكار التي تتناسب مع العصر، ولكي تفتح الباب واسعاً لتبادل المعرفة والأفكار بين أبناء الأمة العربية والآخرين.

ولأن الموضوع كبير وشاق، فقد اقتصر البحث على الإشارة إلى ثلاثة رواد في مجال الترجمة، هم الدكتور طه حسين، والدكتور عبد الرحمن بدوي، والدكتور زكي نجيب محمود، مع تأكيد أن نجاح هؤلاء وغيرهم في الترجمة يعود في الأساس إلى إجادتهم اللغة العربية، لاسيما الدكتور طه حسين، طالب الأزهر الشريف الذي حفظ القرآن الكريم، واستوعب التراث الفكري والأدبي وما أنتجته اللغة العربية من روائع الشعر والنثر. فقد أمده ذلك الاستيعاب بقدرة فائقة على ترجمة ما رآه مناسباً ومفيداً من الفكر الأوربي، ومن الإبداع الأوربي في لغة مشرقة ومنهجية عالية.

إن كل مترجم لا يجيد اللغة التي ينقل إليها، ولا يحسن التعامل بقواعدها، وطرائق تعبيرها ليس سوى مترجم فاشل يسيء من حيث يشعر إلى كلٍّ من اللغة التي ينقل إليها، واللغة التي

ينقل منها، مهما ادّعى بأن مهمته تقوم على توصيل المعنى فحسب؛ بقَطْع النظر عن أسلوب التعبير. وكثيرة هي الروايات العالمية التي أساءت إليها الترجمات الركيكة، وتلك التي لم تظهر قيمتها وأهميتها العالمية إلاّ عندما وجدت مترجمين يجيدون اللغة العربية، ويحسنون التعبير بها. ولا أريد أن أشير هنا إلى بعض الروايات الكبرى والقصائد الشهيرة التي أفسدتها الترجمات الركيكة والنقل الحرفي الجاف فهي عديدة ومعروفة، وغالباً ما يدركها القارئ الفطن المتمكن من اللغة العربية، واللغات الأجنبية.

كثيرة هي القضايا المتعلقة بهموم الترجمة وإشكالاتها لاسيما في الوطن العربي، حيث لا يوجد حتى الآن مشروع قومي مشترك تعمل جميع الأقطار العربية القادرة على تنفيذه والتخطيط لإنجازه وإخراجه إلى حَيِّز الوجود. شعوب كثيرة – في عالم اليوم – لا وزن لها ولا كيانَ قومياً حقيقياً تمثله، نجحت في هذا المضمار، واستطاعت أن تثري مكتباتها الوطنية وجامعاتها بالجديد والأحدث في دنيا العلوم والآداب والفنون؛ على حين بقينا نحن العرب في ذيل القائمة التي تنشرها سنوياً المنظمات المتخصصة؛ مقارِنة بين ما يُترجم في العالم من كتب، وما يترجم منها إلى اللغة العربية، وتلك حقيقة مُوجِعة لم يعد في مقدور أحد في الوطن العربي تجاهلها.

يتجه هذا البحث المختصر إلى تتبع الأسباب التي أدت إلى هذا الموقف المقلق في حق الأمة، وفي حق اللغة العربية، تلك التي أثبتت قدرتها منذ قرون على استيعاب كل ما لدى الآخرين من معارف جادة، واستطاعات أن تكسر الحاجز القائم بين العرب والآخرين على مستوى اللغة، وغيرها من المستويات الثقافية والأدبية والفنية، ودخلت ميدان الترجمة من أوسع الأبواب، ونقلت الكثير من العلوم الطبيعية والهندسية والمعارف الفكرية والأدبية، إذ يحتفظ تراثنا العربي بكثير من الشواهد اليونانية والشرقية القديمة.

ومن النافل القول: بأن الذين كانوا يجيدون الترجمة في العصرين الأموي والعباسي كانوا قلة، ولكنها كانت قلة أخلصت لمهمتها وقدمت ما كانت الأمة بمسيس الحاجة إليه في حقبة

ازدهارها، من نتاجات الحضارات السابقة في الشرق والغرب على حد سواء. ومما يؤسف له أن الذين يجيدون اللغات الأجنبية المعاصرة الآن من العرب يعدون بعشرات الآلاف، ومع ذلك فإن الأمة تشكو من قحط الترجمات التي قد تفيدها، وتساعدها على التثاقف ومعرفة الآخر، الذي أصبح قريباً ومعاصراً، ولم يعد بعيداً عن مدار حياتنا، إن لم نقل بات يتدخل في تفاصيلها. ولهذا الغياب أو بالأحرى هذا التخلف في ميدان الترجمة، سببان رئيسان هما:

أولاً: غياب المشروع القومي للترجمة، وما يرتبط به من إرادة تحفّز القادر على الترجمة؛ والاتجاه نحو تحقيق أهداف هذا المشروع والتنافس على تقديم أفضل الإنجازات المتوخاة منه.

ثانياً: إن الكثرة الكاثرة من الذين يجيدون اللغات الأجنبية لا يجيدون لغتهم العربية على نحو سليم يمكنهم من الترجمة الأمينة، ولا يحسنون النقل إليها أو النقل منها بإتقان، وهي صفة عامة وغالبة باستثناء عدد قليل جداً ممن أتقنوا لغتهم الأم، ونجحوا في أن يقدموا نماذج من الترجمات المهمّة والجادّة.

وأود قبل التوسع في شرح أبعاد هذين السببين، أن ألفت انتباه القارئ إلى أنني قبل أن أشرع في كتابة هذا البحث الموجز عن قضايا الترجمة في الوطن العربي، عمدت إلى قراءة عدد من الكتب العلمية التي تناولت موضوع الترجمة، وتوقفت عند خمسة منها – ويا للأسف الشديد – هي كتابات مترجمة، ألّفها علماء من خارج اللغة العربية باستثناء كتاب واحد والكتب هي:

1. **الترجمة والمعنى، دليل التكافؤ عبر اللغات:** تأليف بلدريد لارسون، ترجمة الدكتور محمد حلمي خليل، والكتاب موسوعة في الترجمة ومصطلحاتها، ويقع في 811 صفحة من القطع الكبير.
2. **نحو علم الترجمة:** تأليف يوجين أ. بندا، ترجمة ماجد النجار، والكتاب دراسة صافية في فن الترجمة وأسلوبها، ويقع في 504 من الصفحات من القطع الكبير.
3. **في نظرية الترجمة، اتجاهات معاصرة:** ترجمة د. سعد عبد العزيز مصلوح، وهذا الكتاب

لا يقل أهمية وبحثاً في قضايا الترجمة وإشكالاتها المختلفة عن سابقيه، ويقع في 559 صفحة من القطع الكبير.

4. **الفكر اليوناني والثقافة العربية:** لمؤلفه ديمتري غوتاس، ترجمة وتقديم الدكتور نقولا زيادة. والكتاب يعرض لحركة الترجمة من اليونانية إلى العربية والعوامل السياسية والاجتماعية التي أدت إليها. ويقع في 313 صفحة من القطع المتوسط.
5. نظرية الترجمة الحديثة، للدكتور محمد عناني، والكتاب محاولة لتقديم رؤية عربية عن هذا الفن الصعب، يستعين فيه مؤلفه بعدد من المراجع الأجنبية في موضوع الترجمة، مع إيراد نماذج تطبيقية يعود أغلبها إلى تجربة المؤلف في هذا المجال، يقع الكتاب في 322 صفحة من القطع المتوسط.

ولأن الوقت لم يسعفني لقراءة هذه الكتب قراءة وثيقة ومتفحصة، فقد تصفحتها جميعاً، وتوقفت طويلاً عند بعض الاختلافات النظرية والتطبيقية التي شغلت حيزاً لا بأس به من صفحاتها، برغم الاتفاق العام على أهمية الترجمة بوصفها وسيلة لا مناص منها للتثاقف، وتبادل المعرفة الإنسانية بين الشعوب على اختلاف لغاتها وجنسياتها. وفي المكتبة العربية كتب أخرى باللغات الأجنبية ومترجمة إلى العربية، تتحدث في الموضوع نفسه، وتناقش القضايا ذاتها إلى جوار عشرات، بل مئات الكتب المترجمة في معارفَ وعلومٍ شتى، صدرت عن أفراد، أو عن منظمات محدودة، لكنها لا تقاس – كما سبقت الإشارة – إلى ما يُترجَم إلى اللغات الأخرى، وأستطيع القول إنني خرجت من قراءتي المتواضعة بملاحظة مؤكدة هي أن قضايا الترجمة وإشكالاتها في الوطن العربية كثيرة، وأن حاجتنا لم تعد مقصورة على كيفية ترجمتها؛ وإنما على ماذا نترجم.

لقد توقفت طويلاً لدى بعض الفقرات المهمة في كتاب "الترجمة والمعنى"، منها تلك الفقرة التي يشير فيها المؤلف إلى حاجة المترجم إلى الإحاطة بعلاقات التعميم والتخصيص في الكلمات، حيث يرى "أن الإحاطة بها تساعده على إيجاد المكافئ المعجمي الصحيح الذي قد

يصعب إيجاده إذا لم يكن المترجم على وعي بهذه الإمكانية؛ فمثلاً قد يتمكن من استعمال كلمة في اللغة المستقبلة تضم كلمة من اللغة المصدر ثم يضيف إليها عبارة وصفية لتوضّح مكونات المعنى المحدد للكلمة المصدر"[1]. ويضيف المؤلف في مكان آخر: "أن اللغة تميل إلى الاختلاف في الكلمات العامة أكثر من الكلمات الخاصة، فعند ترجمة كلمة محدودة نوعاً ما يكون إيجاد المكافئ الأقرب أمراً أكثر سهولة؛ لأن المفردات المحددة من الممكن أن تتطابق بين لغتين، ولكن عند ترجمة كلمات عامة قد يكون الأمر أكثر صعوبة، والمفردات العامة في لغة ما تختلف إلى حدٍ بعيد عن المفردات العامة في لغة أخرى، فينعدم المقابل الصحيح"[2].

وتحتوي هذا الإشارة على ملاحظة بالغة الأهمية، قد لا ينتبه إليها كثير من المترجمين العرب، وذوي العلاقة الضعيفة باللغة العربية على وجه الخصوص، فقل منهم من ينتبه إلى هذا الفارق بين ما هو خاص في اللغة وما هو عام، بين القاموسي والمستحدث، بين لغة الجامعة ولغة الشارع. كما أنني توقفت طويلاً أيضاً تجاه فقرات، لا تقل أهمية في كتاب "الفكر اليوناني والثقافة العربية" ومنها هذه الفقرة الطويلة التي توجز الرأي في تواصل الثقافة العربية بالثقافة اليونانية، والرعاية الشاملة التي وجدتها حركة الترجمة على مدى قرنين، إذ يرى مؤلف الكتاب "أن حركة الترجمة التي بدأت مع تولي العباسيين السلطة وكانت بغداد مسرحها الرئيس، تمثل إنجازاً مذهلاً. وبقطع النظر عن أهميتها الخاصة لفيلولوجية اللغتين اليونانية والعربية وتاريخ الفلسفة والعلم، وهي النواحي التي أمعن الباحثون في درسها حتى يوم الناس هذا، لا يمكن العضّ عليها بالنواجذ وتفسيرها إلاّ على أنها ظاهرة اجتماعية (الناحية التي نالها حظ قليل من البحث الدقيق). ولنوضّح: قبل كل شيء إن حركة الترجمة اليونانية العربية امتدت على مدى يُنَيِّفُ على القرنين، ولم تكن ظاهرة سريعة الزوال. ثانياً كان يساندها نخبة المجتمع العباسي بكماله: الخلفاء والأمراء وموظفو الدولة والزعماء العسكريون والتجار

[1] بلدريد لارسون: **الترجمة والمعنى**، ترجمة: د. محمد حلمي خليل، الناشر جامعة الكويت، 2007م، ص 114.
[2] المصدر نفسه، ص 115.

وأصحاب المصارف والعلماء؛ ولم تكن مشروعاً خاصاً بفئة معينة لتسويق مشاريعها المحدودة. ثالثاً: تم دعمها بتخصيص مبالغ مالية ضخمة عامة وخاصة؛ ولم تكن نزوة شاذة ولا تبجحاً اجتماعياً، يقوم به أنصار أثرياء يطمعون في التبرع لقضية إنسانية أو لتعظيم النفس، وأخيراً فقد تمت متابعتها على أسسٍ منهجيةٍ بحثٍ صارمة وحفظ فيلولوجي دقيق – على أيدي حنين بن إسحاق الشهير وزملائه – على أساس برنامج مسنود قد امتد عبر أجيال. والذي كان يعكس، في نهاية المطاف، موقفاً اجتماعياً وجوَّ الثقافة العامة في المجتمع العباسي المبكر. لم يكن نتيجة اهتمامات شخصية أو عشوائية يقوم بها أفراد شواذ هم الذين يمكن أن يظهروا في أي عمر وزمن، والذين يغوصون في فيلولوجيات معمّاة واهتمامات تتعلق بالنصوص التي عندما توضع في محك التاريخ يتبين بطلانها"[1].

لا أخفي أنني حرصت على نقل هذه الفقرة الطويلة ووضعها في هذا المكان من البحث للدلالة على مدى اهتمام أجدادنا الأوائل، في عصور ازدهارهم بالمعرفة والعلم، وتبسيط كل ما تتطلبه هذه المهمة من إمكانات. وما يبعث على الإعجاب أن تشجيع حركة الترجمة في ذلك العصر لم يكن محصوراً على الدولة ولا جزءاً من مشاريعها فحسب، بل كان تعبيراً عن اهتمام عام، تسانده الطبقات القادرة من العلماء والزعماء والتجار وأصحاب المصارف، وهو ما يدعونا إلى التساؤل أين هؤلاء الان من حركة الترجمة المعاصرة؟ وهل هناك رجل أعمال واحد من رجال الأعمال الذين يعدّون بمئات الآلاف يفكر – مجرد التفكير – في مساندة جهد علمي ثقافي كهذا الجهد، إذ في استطاعة هؤلاء أن يخصصوا جزءاً صغيراً مما ينفقونه على الدعاية والإعلام لإنعاش الثقافة العربية، ورفدها ببعض ما تحتاج إليه من رعاية مادية ومعنوية.

عرفنا في الصفحات السابقة شيئاً عن الأسباب التي حملت العربي في الماضي على الاتجاه

[1] ديمتري غوتاس: ترجمة: د. نقولا زيادة، **الفكر اليوناني والثقافة العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، يونية 2003م، ص 30-31.

نحو الترجمة، وقد زادت هذه الأسباب وتعددت في العصر الحديث، نتيجة التغير الشامل في طرق الحياة ووسائلها، ونتيجة للتقارب الذي تتسع مساحته يوماً بعد يوم في هذا العالم، الذي صار البعض ينظر إليه على أنه قرية واحدة؛ برغم احتفاظه بلغاته وخصائصه الثقافية المختلفة، وبرغم ما تطمح إليه العولمة الرأسمالية من التمكين للغة عالمية واحدة تمكّن للرأسمال العالمي من بسط الهيمنة والنفوذ على العالم، وحرمان الشعوب الفقيرة اقصادياً وثقافياً من الاحتفاظ بلغاتها، والاعتزاز بموروثاتها الثقافية الروحية، ولم تُصبِ البعضَ منا تلك الكتبُ التي تبشر بزمن اللغة الواحدة والثقافة الواحدة والإنسان الخاضع لمركزية المال وتحولات القوة، لم تصب تلك الكتب البعض منا بصدمة الغرابة، فقد كانت متوقعة ومنتظرة، وهي تعكس الواقع الكوني الراهن، وما يضطرب في جنباته من آراء وأفكار على درجة من السوء والخطورة.

والواضح تماماً أن الدعوة إلى لغة واحدة للعلم وللثقافة تلغي من الأساس فكرة الترجمة، بل تلغي اللغات والثقافات الأخرى باستثناء لغة واحدة، هي المستبدة والسائدة بحكم القوة المادية والاقتصادية. وقد أمسكت بين يدي أثناء كتابة هذا البحث كتاباً بعنوان "هل يحتاج العالم إلى لغة علمية، اللغة الإنكليزية ومستقبل البحث العلمي" لمولفه الأمريكي "سكوت ل. مونتغمري" ومع أن المؤلف شديد الذكاء وقادر على خلط السم بالعسل؛ فإنه لم ينجح في إخفاء عولميته أو مداراتها، فهو يحوم ويدور ليؤكد أن اللغة الإنجليزية كما جاء في العنوان الفرعي لكتابه، هي لغة المستقبل لكل البشر الذين يعيشون على وجه هذه المعمورة بوصفها – أي الإنجليزية – لغة التواصل بين العلماء والمثقفين في مواقع جغرافية وثقافية مختلفة، وفي الكتاب إشارة إلى صعوبة اللغة العربية والعقبات الهائلة التي تحول دون إتقانها "كما يدل مثلاً الوقت الطويل الذي استغرقه رجال أذكياء مثل "اويلان أوف باث"، و"جيرارد أوف كريمونا"، لتعلم لغة مثل العربية التي ربما أتقنوها أو لم يتقنوها أبداً فعلاً"[1]، ونتائج هذا الدليل المتعسف الذي أورده

[1] سكوت ل. مونتغمري: ترجمة فؤاد عبد الملك، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد يناير 2015، ص 206.

المؤلف تصب في مصلحة اللغة الإنجليزية، لغة المستقبل، كما يقول، لسهولتها وبساطة تركيبها وبوصفها اللغة السائدة في مجال التواصل العلمي والاقتصادي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الانتشار الذي حققته هذه اللغة الانجليزية ليس لما تمثله من علوم وفنون وآداب وفلسفة، وإنما لارتباطها بالمدّ الاستعماري الذي امتد من أمريكا إلى الهند وإلى بقاع كثيرة من العالم. فلو كان الأمر يتوقف على الإنجاز العلمي المعرفي والثقافي، لكان ثمة لغات أوربية أجدر منها بالانتشار كاللغة الفرنسية والألمانية على سبيل المثال لا الحصر. يضاف إلى ذلك أن العلم والمخترعات الحديثة في مجالات عديدة لم يكن وقفاً على بلد بعينه بل كان مُشاعاً بين أكثر من بلد، وليس التعبير عنه محتكراً للغة واحدة من اللغات مهما كان المدى الذي بلغته في انتشارها المؤقت.

إن الفكرة التي يقوم عليها كتاب "مونتغمري" ليست سوى انعكاس للاهتمامات المُسَيَّسة التي تجتاح العالم، وتتنافى مع الموضوعية وحيادية البحث العلمي، فهي جزء لا يتجزأ من الحملة التي تشنها العولمة للسيطرةعلى العالم اقتصادياً وسياسياً وثقافياً، ولن يتحقق لها ذلك بسهولة ويسر إلاّ بواسطة لغة موحدة ووحيدة، لا تَكُون تصوراً عن العلم وأبحاثه فحسب، وإنما هي تصوّر عن مشاعره واهتماماته اليومية بوصفه إنساناً معولماً، يدور في تلك الهيمنة "السوقية" نسبة إلى السوق. وأية مشاركة علمية أو ثقافية للبشر ينبغي أن تحتويها هذه اللغة العالمية الواحدة التي أثبتت على حد ما ذهب إليه المؤلف وجودَها وسَعة انتشارها، مع اعترافه الملتوي بدورها في تخريب بعض اللغات، ودورها في العمل على انحسارها، وهو الاعتراف الذي جاء منه على شكل سؤال هو: "هل يجب علينا الإقرار بأن الإنجليزية يمكن أن تكون الطرف المذنب في الجرائم الكبيرة لعملية القتل اللغوي أو حتى الإبادة اللغوية"[1]

إن ما طرأ على العالم في العصر الحديث من تطور، لا يمنع أن تحتفظ الشعوب المختلفة بلغاتها وثقافاتها، وأن تقيم – من خلال الترجمة – جسوراً للتواصل المستمر بين هذه اللغات

[1] المرجع نفسه، ص 26.

والثقافات، وما يقال عن انحسار بعض هذه اللغات، إنما ينطبق على لغات شفاهية لا موروث لها ولا تمتلك أيّة إضافات إبداعية معاصرة، أما اللغات التاريخية ذات الموروثات الثقافية والعلمية فمن الصعب، بل من المستحيل أن تَضمر أو تغادر موقعها، ذلك أنها لغاتٌ منفتحة وقادرة على استيعاب ثقافات الآخر عن طريق الترجمة التي أصبحت الآن أكثر من ميسورة وممكنة. وبالنسبة للعربية، وهي واحدة من ست لغات معترف دولياً بعالميتها، فلا ينقصها في حقل الترجمة سوى المشروع القومي، الذي يقوم على قواعد علمية ثابتة لا يجعل من الترجمة علماً وفناً فحسب، بل هدفاً واضحاً خاضعاً للتخطيط والاجتياح. وهو ما يؤكد مسؤولية الأنظمة الحاكمة ودورها في الإشراف والمتابعة على ترجمة العلوم النوعية من ناحية، والثقافية من ناحية ثانية. وإذا كانت مصر العربية قد سعت إلى إيجاد مثل ذلك المشروع، وكانت قد قطعت شوطاً في هذا المضمار من خلال أنشطة المؤسسات الخاصة والعامة، تلك التي نجحت في ترجمة الموسوعات العلمية والمصطلحات الطبية، وما قدَّمه مشروعُ الألف كتاب، دليلٌ قوي على ذلك، فإن تبدل الظروف والانشغال بالسياسة قد أوقف هذا الجهد المشكور إلى حين.

كما لا يمكن تجاوز ما أسهمت به سورية والعراق ولبنان والكويت والمغرب من ترجمات علمية وأدبية، وصلت ذروتها في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، ثم بدأت في التراجع تحت وطأة الصراعات السياسية التي أسقطت كل المشاريع الهادفة، علمية كانت أو اقتصادية أو ثقافية، وسيكون من الصعب في ظل هذه الظروف الراهنة على غير مصر العربية أن تحقق المقاصد المرجوّة من الترجمة، مع ضرورة أن تجد عوناً كافياً ومؤازرة من بقية الأقطار العربية، القادرة منها على وجه الخصوص. وقد قيل الكثير عن الصراع الدائر مع أعداء الأمة العربية العربية، هل هو صراع حضاري وفكري بالدرجة الأولى؟ على أنه لن يقوم فكر لأمةٍ من الأمم أو ينتصر لقضاياها إذا لم يخرج من عزلته ويتواصل مع آراء الآخرين وأفكارهم، وهذا ما وعاه رواد حركة النهوض العربي منذ منتصف القرن التاسع عشر، وظهرت ثمرته بوضوح في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته وأربعينياته، بفضل كوكبة الرواد الذين لم يتجشّموا عناء الترجمة، ويُحْسِنوا النقل من اللغات الأخرى إلاّ بعد أن

أجادوا لغتهم، وتمكنوا من امتلاك قواعدها.

من هذه الكوكبة التي تعد نموذجاً في هذا المجال ثلاثة أعلام بارزون هم: الدكتور طه حسين، والدكتور عبد الرحمن بدوي، والدكتور زكي نجيب محمود. والحديث عن طه حسين ودوره في محيط الترجمة يقتضي بحثاً موسعاً ومعمقاً، فقد أثرى الحياة الفكرية والأدبية العربية بما ترجمه من آثار اليونان في الفكر والأدب، ومن آثار الفرنسيين في الإبداع والفكر والفلسفة والفنون. وفي كتابه "قادة الفكر" وقد خصّ به الفلاسفة والمفكرين اليونانيين والرومانيين، كما في كتابه "نظام الأثينيين" الذي قدم فيه صورة شاملة عن نظام "أثينا" والإصلاح السياسي والاجتماعي الذي شهدته تلك المدينة في عصرها الذهبي، ومبدأ الديمقراطية والأحزاب، والانتخابات ونظام الطبقات. وكان طه حسين في الكتابين المشار إليهما مؤلفاً ومترجماً في آن واحد، وكانت له آراؤه وملاحظاته وانتقاداته، ولكن ذلك كله لا يلغي أنه كان في كثير مما ينقله مترجماً دقيقاً وأميناً، ويمكن إدراج كتابه "من الأدب التمثيلي اليوناني" في هذا السياق. أما ترجمات طه حسين عن الفرنسية، فقد كانت أوسع وأشمل، فقد قرأ لنا نماذج مختارة من الروايات والقصص والمسرح، وحدثنا عن "جان بول سارتر"، و"البيركامو" في وقت مبكر من العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، وقبل أن يولد المترجمون الشبان الذي أقاموا الدنيا وأقعدوها، وكأنهم اكتشفوا هذين المبدعين؛ كما حدثنا في بداية الأربعينيات عن عدد من شعراء فرنسا، من أبرزهم الشاعر "بول فاليري" الذي وصفه بعقل فرنسا المفكر وقلبها النابض.

وفي كتابه "ألوان" زادٌ وفير للقارئ بما ترجم فيه عن المفكرين والفلاسفة والمبدعين، كما في حديثه عن الفيلسوف العاشق "أوغست كونت" مؤسس الفلسفة الوضعية وواضع علم الاجتماع. وكعادته يجمع طه حسين بين الحديث عن فكر الفيلسوف والمبدع وحياته ليتمكن القارئ من الإحاطة بالعوامل والمؤثرات التي كانت سبباً في نجاح هذا المفكر أو ذلك المبدع، وهو أسلوب فريد من الترجمة لم يشاركه فيه أحد ممن ترجموا أعمال كبار المبدعين والمفكرين. وفي كتابه هذا "ألوان" فصل عن حياة الكاتب الأمريكي الأسود "ريتشارد درايت"

مستمد من كتاب يتحدث فيه هذا الكاتب صاحب "كوخ العم توم" عن حياته ومعاناته، قبل أن يأخذ طريقه إلى الكتابة ومنها إلى الشهرة الواسعة. لقد كان طه حسين يعرف ماذا يترجم وكيف يترجم، فاهتم بالفكر السياسي والاجتماعي؛ اهتمامه بالإبداع في مستوياته العالية. وحين أعود بين حين وآخر إلى طه حسين في ترجماته الفريدة بلغتها وموضوعاتها أتحسر على الأجيال التي وفدت إلى الجامعات بعد الرواد، ولم تحسن الاقتداء بهم والتعلم منهم.

كان لطه حسين أسلوبه الجميل في ترجمة ما يقرأه، فكراً كان هذا الذي يقرأه أو أدباً، يتمثله أولاً، ثم يقدمه إلى القارئ شارحاً وموضحاً وأحياناً موجزاً أو معتذراً عن هذا الإيجاز وهذه الإطالة. وفي كتاب "قادة الفكر" يضع بين يدي القارئ في مجال حديثه عن "سقراط" المقدمة الآتية: "بين يدي الآن كتاب ظهر في هذه الأيام، موضوعه تاريخ الفكر اليوناني لأستاذ من علماء الفرنسيين هو المسيو "ليون روبان"، وليس هذا الكتاب الضخم القيّم أول كتاب ظهر في هذا الموضوع، ولن يكون آخر كتاب، بل ليس هو الكتاب الوحيد الذي ظهر في هذه الأيام من نوعه، وإنما هناك كتب كثيرة ظهرت، وتظهر وستظهر في هذا الموضوع، لأن الآدميين يتخذون هذه القاعدة قانوناً لهم، وهي أن ليس إلى فهم الحياة الحديثة على اختلاف وجوهها من سبيل إلاّ إذا فهمت مصادرها الأولى، ومصادرها الأولى هي الحياة اليونانية من جهة والرومانية من جهة أخرى، أو قل هي الحياة اليونانية، لأن حياة الرومان كانت من أكثر وجوهها متأثرة بالحياة اليونانية"[1].

ولا أخفي أنني اخترت هذه الفقرة المطولة من الكتاب لما تشير إليه من أن الأوربيين مجمعين على أنه لا يمكن فهم حياتهم الحديثة إلاَّ في ضوء مصادرها الأولى، وهو ما ينفعنا نحن العرب، والفهم لا يعني التقليد والتكرار والمحاكاة، وإنما استمرار التواصل وعدم القطيعة لما يترتب على ذلك، إن حدث، من غربة واستلاب.

ثاني الرواد في دنيا الترجمة العميقة هو المفكر الدكتور عبد الرحمن بدوي أحد طلاب

[1] د. طه حسين، المجموعات الكاملة، المجلد الثامن، علم الاجتماع: قادة الفكر، ص 208.

الدكتور طه حسين، وفي طليعة من تأثروا باهتماماته، وإن اختلف أسلوب كل منهما عن الآخر، كما طريقة حياتهما. قد تخصص الدكتور بدوي في الفلسفة، وكانت دراساته في البداية مقصورة على دراسة الفكر العربي والفلاسفة العرب قبل أن يتجه إلى الترجمة، ويشغل نفسه وقرّاءه بما يكتبه ويترجمه عن فلاسفة الغرب، وأصحاب الفكر الوجودي خاصة، حتى وصل به الحال إلى اعتناق الوجودية، والتبشير بها في مصر قبل أن يبدأ الجيل الجديد من المترجمين الشبان الاقتراب من هذا الفكر وترجمة بعض الأعمال الفكرية والأدبية لروّاده، وكان كتابه "الوجود والعدم" وهو يجمع بين الترجمة والتأليف عملاً ضخماً، وجهداً بالغ الأهمية قل نظيره في الجهود التي قدمتها الأجيال الجديدة. كما لم يقتصر اهتمامه على الفلسفة، فقد كان من أوائل من ترجموا نماذج من الشعر الألماني والإنجليزي، وهي ترجمات وجدت عند ظهورها تقبلاً واهتماماً من الشعراء في مصر والوطن العربي، وقد حرص على أن ينشرها في مجلة "الرسالة" التي كانت تجمع تحت لوائها الأدباء العرب المشارقة والمغاربة، وتعمل جاهدة على تعميق المشاعر الثقافية الواحدة.

أما ثالث هؤلاء الرواد، فقد كان الدكتور زكي نجيب محمود، وهو كسلفه من الذين تلقوا المعرفة الجامعية على يدي طه حسين، وبرغم تخصصه الفلسفي، فقد كان على صلة وثيقة بالأدب، وقد ساعدته لغته العربية، المتينة نسبياً التي تلقاها في كلية الآداب، على تعدد أنشطته المترجمة في الأدب وفي الفلسفة، وكما كان كتابه الموسوم بـــ "قصة الفلسفة" ترجمة راقية لأعلام الفلسفة في الغرب، كان كتابه "قصة الأدب في العالم" موسوعة توجز أهم الإنجازات الأدبية العالمية في عرضٍ يجمع بين التأليف والترجمة، وهي السمة التي التزمها هذا الجيل من الرواد الذين حرصوا في ترجماتهم، على أن يقدموا للقارئ العربي خلاصات وافية عن كل ما يرونه مفيداً ونافعاً لثقافتنا العربية، ودافعاً إلى تطويرها والخروج بها من قبضة التقليد ومحاكاة القدماء.